الحلقة الثلاثون

(1) (بيروت. قصر علي باشا.. شهربان تنسج كنزة زهرية اللون لباكيزا.. عثمان ومصطفى يذاكران دروسهما في انتظار مجيء خالد.. علي وسليمان يلعبان الكرة في الحديقة.. عم جلنار كمال باشا يصل لتوه من استنبول.. تنقل حقيبته الى جناح الضيوف.. يجلس غير بعيد يحادث جلنار)

كمال باشا: لقد أطلت غيبتك يا جلنار، وما كان سفرك الآلمدة قصيرة توصلين بها أبناء أخيك وتعودين.

جلنار: خالد يرغب في البقاء في لبنان...

كمال باشا: الى متى؟

جلنار: ان خالد يبحث عن عمل ليستقر هنا، شهربان...

كمال باشا: لا أسمح لابنة أخي كمال باشا أن تتغرّب. ان استنبول هي أم الدنيا، فما الذي يغري خالد بالبقاء في لبنان؟ معنى هذا أنه عاطل عن العمل حتى الآن؟ كيف كنتما تعيشان؟

جلنار: انه ينزل عند أهله، وأنا أنزل ضيفة على شهربان. ولكنه يسعى لعمل ثابت في إحدى الكليات بتدريس العربية. يمضي وقته في مقر صحيفة لسان الحال التي يرأسها الشيخ يوسف الأسير، ويأتي عصرا ليدرس أبناء شهربان اللغة العربية.

كمال باشا: ما هذا الذي أسمعه؟ هل قررت شهربان البقاء الى الأبد في لبنان لتدرّس أبناءها اللغة العربية؟

جلنار: انها باقية لأنها تزوجت لبنانيا.

 جلنار: ليس زوجها من عامة الناس.. درس الطب في مصر، وأردفه بدر اسة الحقوق في الأزهر، وله مكتب وعمل مرموق في إدارة مالية الفوج الرابع في لبنان..

كمال باشا: (متنهدا) لقد خطبت أليسار الى إبني الأمير ابراهيم، وجئت بنفسي لأصطحبكم جميعا الى استنبول لحضور عرسها. (يدخل خالد ومعه شاب لم تره شهربان من قبل. تترك النسيج من يدها على الطاولة وتقف لاستقباله)

خالد: (الى شهربان) ألم تعرفيه؟

شهربان: (تتأمل الوجه الصبوح والعينين السوداوين والشعر الأسود المسرح الى الجنب، والشاربين الكثيفين الطويلين المبرومين الى الأعلى وتهتف) حسن! كم تغيرت! امتلأ جسدك النحيل. أوحى لي لباسك الفرنجي الكحلي الأنيق، والقبة الصغيرة البيضاء، والعقدة المتدلية الحمراء بأنك أحد أمراء البلاط، أو أحد قناصل الدول الذين يستقبلهم والدي في القصر.

خالد: هذا عثمان وهذا مصطفى اللذان حدثتك عنهما (الى ولدي شهربان) هذا الدكتور حسن أخو محمود، جاء من مصر وعين على الفور أستاذا في الكلية الطبية التابعة للجامعة الأمريكية. رأيته اليوم في مقر جريدة لسان الحال، فجئت به ليعينكما في اختيار الترجمات المناسبة للسنة الأولى في الجامعة.

شهربان: انني أعرفه منذ كان في السادسة من عمره..

خالد: وأنا أعرفه، منذ ولد.. كان ما بين عائلتينا نحن والشيخ يوسف الأسير صداقة عمر.. (كمال باشا وجلنار يتوقفان عن الحديث.. خالد وحسن يسلمان عليهما ويجلسان.. تقوم شهربان بتعريف حسن اليهما.. يصل محمود وينضم الى المجموعة.. كمال باشا يدعو الجميع الى حضور عرس أليسار في استنبول)

محمود: أنا لا أستطيع أخذ إجازة، والعمل ملح لديّ..

شهربان: وأنا لا أستطيع السفر فلدي طفلة ترضع وأخشى عليها مغبة السفر...

كمال باشا: ألديك طفلة؟

شهربان: نعم، لقد حان وقت إرضاعها. أستأذن.. (يعود خالد وحسن الى حيث جلس عثمان ومصطفى وأخذوا يتداولون شؤون الدراسة والصعوبات التي تعترضها.. على الطاولة مجموعة الكتب الطبية باللغة

الإنجليزية التي يتصفحها حسن، ويقرأ بعض الترجمات لفصول منها ويعلق عليها)

حسن: (الى خالد) انها جيدة غزيرة المعلومات، ولكن في وضع عثمان ومصطفى لا يستفيدان منها كما يستفيدان من الكتب المنهجية التي كنت أدرس فيها عاما بعد عام في مصر.. وأثناء تدريسي في الجامعة ستكون محاضراتي مترجمة عن هذه الكتب وسأزودك بها لتدريس عثمان ومصطفى اللغة العربية العلمية (خالد يترجم حديث حسن الى التركية)

كمال باشا: (الى على) أتحدثك أمك باللغة التركية؟

على: أمى تحدثني بالتركية، ولكن بابا محمود يكلمني بالعربية.

كمال باشا: وتفهم اللغتين؟

علي: نعم، وأكتب الأحرف والأرقام باللغتين، فأنا في الصف الأول الإبتدائي..

كمال باشا: ما شاء الله، ما شاء الله!

سليمان: (موضحا) علي ترجمان لنا على ما يعصى علينا فهمه.. ثروته الكلامية متميزة في سنه الصغيرة..

كمال باشا: (الى سليمان) ألا تحب العودة الى استنبول تستكمل فيها در استك؟

سليمان: أنا أكون حيث تكون أمي وعلي (تعود شهربان وينصرف محمود الى مجموعة خالد وحسن)

كمال باشا: أنا لن أناقشك ياشهربان فيما اخترته لحياتك لأنك حرة في شأنك. أما أبناؤك فأنا بمثابة جدّهم، ولا يمكن لي أن أتركهم في كنف رجل غريب..

شهربان: ليسوا في كنف رجل غريب. انه زوجي الذي يرعاهم كأب لهم حريص مثلي على مصلحتهم، وهم يعيشون في قصر جدهم.. وقرب أمهم التي أنجبتهم..

كمال باشا: كيف يكملون دراستهم في هذه البلد، وهم لا يعرفون العربية؟

شهربان: أنا ومحمود نتدبر أمر دراستهم.. ان والد محمود وأخاه مدرسان في الجامعة الأميركية: والده يدرس اللغة العربية وآدابها في الجامعة، وأخوه يدرس في كلية الطب، ولا يحتاجون الا الى إتقان العربية ليدخلوا الصف الذي يمكنهم من متابعة دراستهم ان كانت في الإعدادية أو الثانوية أو الجامعية.. أما على فدراسته منتظمة وسيتقن اللغتين العربية والتركية في آن واحد..

كمال باشا: أريد أن أعرف رأيهم، فهم في سن يقدرون فيه مصلحتهم.. وخصوصا عثمان ومصطفى.. (خالد وحسن يأتيان لوداع شهربان)

حسن: ان لك ابنين ممتازين يا هانم، وسينجحان ويتفوقان في مهنة الطب لأنهما يرغبان في هذه الدراسة، وسنكون أنا وخالد عونا لهما في تحقيق طموحهما.

شهربان: سمّني باسمي كما كنت تفعل وأنت صغير...

حسن: أتذكرين هديتك لي في العيد؟

شهربان: أية هدية؟

حسن: المكبرة التي تكبر الأشياء عشرين مرة.. منذ ذلك الوقت كنت مسحورا بعالم النبات الطبي، أصنفه وأعرف فوائده في علاج الكثير من الأمراض الشائعة.. وحين يطبع لي المخطوط الذي يحوي المعلومات التي اختزنتها في البلاد التي عشت فيها: في الأناضول الي جبال لبنان، الى مصر الى سيناء، سأهديه لك، أنت التي عرفت بفراستك ميولي..

شهربان: (ضاحكة بابتهاج) لست أنا التي عرفت ميولك، بل وصيفتي التي كانت تزور أهلها في الجبل، وتأتيك بأنواع الأعشاب الطبية لتصنفها في دفترك.

حسن: (ضاحكا) على كل حال انه تذكار عزيز علي، ولقد بقي سليما عندي حتى الآن. ما زلت أنظر في العدسة لأفحص العيون، والطفح

والبثور والبقع البيضاء التي تظهر على جلد المريض لأعرف العلة خلفها.

شهربان: لاتطل غيابك عنا فلدي طفلة هي ابنة أخيك أريد أن أضعها تحت إشرافك بشكل دوري.

(2) (شهربان ومحمود في غرفة نومهما)

شهربان: استطاع هذا المنافق كمال باشا خلال الأيام الثلاثة الماضية أن يقنع عثمان ومصطفى بالعودة الى استنبول، وإكمال در استهما الثانوية ودخول كلية الطب. ففي هذه الكلية مدرسون أجانب من الألمان وأساتذة أتراك درسوا الطب في ألمانيا وهم يحسنون الألمانية.

محمود: أنا لم أرتح أبدا لكمال باشا منذ رأيته.. نظرته المتعالية واستخفافه بالآخرين، وضحالة ثقافته وغروره وجشعه كانت تثير أعصابي.. حاولت جهدي أن أتماسك فلا يثور غضبي وأطرده من بيتي.. ولكن كيف استجاب عثمان ومصطفى له؟

شهربان: لعب على وترين حساسين عند عثمان ومصطفى: كبريائهما في أن يكونا عالة على أحد، وصعوبة اندماجهما في المجتمع اللبناني.. حين فوجئ بزواجي قال "أنا لن أناقشك فيما اخترته لحياتك، أما أبناؤك فأنا بمثابة جدهم، ومن حقي أن أر عاهم، ولن أسمح لهم بالعيش في كنف رجل غريب"..

محمود: ان وراء تمسّكه برعايتهم منفعة خاصة به.. ولعله طامع بالراتب الذي أجري لهم بعد استشهاد والدهم في المعركة..

شهربان: سلم فمك! كيف عرفت بهذا؟

محمود: أنا رجل حقوقي، وأعرف ما يدور في أذهان أمثال هؤلاء الناس..

شهربان: لقد ذكر لهم صعوبة نقل الراتب الي بعد أن تزوجت.. وذكر أيضا أنه لا يحق لي شرعا الأرعاية علي الذي هو دون السن القانونية..

محمود: قولي له أننا لسنا بحاجة الى هذا الراتب، والله يرزقنا من حيث لا نحتسب. ولكننا لا نسمح له أن يخطط لمستقبلنا ومستقبل أولادنا أبدا! اننا نعرف الشرع الإسلامي الذي جاء به الرسول العربي ونلتزم بهديه: أن لا يكون لزوج امرأة مسلمة سقط زوجها في المعركة، وكان لها أولاد وثروة منه، أن يكون له الحق في ثروة زوجته، لتكون خالصة لأبنائه حين يبلغون سن الرشد. هذا الراتب من حقك في شرع الإسلام تستثمرينه بنفسك وتنفقين منه على أولادك! ولا يجردك الزواج ثانية من أي من حقوقك.

شهربان: لا أريد أن أؤجج العداء معه، فأنا أعرف القوى التي تحميه في القصر، انها عمياء مغرضة، وربما اتهمك بالعداء للسلطان ووشى بك فتودع في السجن بلا محاكمة. إسأل خالد يخبرك عما يجري هناك. عهد عبد الحميد الذي بدأ بتعزيز القوانين التي صدرت زمن عبد المجيد في التأمين على الحياة والممتلكات والشرف، والمساواة التامة لجميع رعايا السلطنة العثمانية مهما كان عرقه أو مذهبه، انتهكت فيما بعد، وأصبح حكمه أكثر تسلطا من حكم عبد العزيز وأكثر دموية.

محمود: أعرف هذا..

شهربان: لم أنم طيلة الليل يا محمود.. وتوصلت الى قرار أحلاه مر.. ليذهب عثمان ومصطفى الى استنبول فهذا أيسر لدراستهما.. لا أريد لهما أن يحرما من المنافع الكثيرة المتاحة لهما في العاصمة، ولكن علي أن أحذر هما من الإنتماء الى أي حزب أو حركة سياسية، أو يتورطا في نقد الأوضاع أمام أحد.. ففي الأيام المظلمة تتطلب الحكمة خفض الرؤوس خوف حصادها.. ليكن هدفهما العلم وحده، وليذهبا مع كمال باشا وجلنار ويحضرا عرس أليسار..

محمود: كمال باشا لم يسع لتزويج أليسار الى ابنه ابراهيم الا ليضع يده كذلك على ممتلكات إبن أخيه.

شهربان: هذا ما أدركته أنا الأخرى.. ان يومي عصيب فعلي أن أرتب الحقائب لسفر هما في الغد..

* * *

يسرى الأيوبي شهربان مسلسل تلفزيوني